

دلائل الإعجاز

(تَوَلَّوْا بَعْغَتَةً فَكَانَ بَيْنَنَا ... تَهَيَّبْنِي فَفَاجَأَنِي اغْتِيَالًا) .
(فَكَانَ مَسِيرُ عَيْسِهِمْ ذَمِيلاً ... وَسَيَّرُ الدَّمْعَ إِثْرَهُمْ أَنْهَمَالًا) .
قولُهُ : فكان مسيرُ عيسِهِم معطوفٌ على " تولَّوْا بَعْغَتَةً " دونَ ما يليه من قولِهِ : " ففاجأني " لأنَّ إنَّ عطفناه على هذا الذي يليه أفسدنا المعنى من حيثُ إنه يدخلُ في معنى كأنَّ وذلك يُؤدِّي إلى أن لا يكونَ مسيرُ عيسِهِم حقيقةً ويكونَ متوهِّماً كما كان تهيِّبُ البين كذلك وهذا أصلٌ كبيرٌ . والسببُ في ذلك أن الجملةَ المتوسِّطةَ بين هذه المعطوفةِ أخيراً وبين المعطوفِ عليها الأولى ترتبط في معناها بتلك الأولى كالذي ترى أن قولَهُ : " فكانَ بينا تهيِّبُني " مرتبطٌ بقوله : " تولَّوْا بَعْغَتَةً " . وذلك أنَّ الثانية مسبِّبٌ والأولى سببٌ ألا ترى أن المعنى " تولَّوْا بَعْغَتَةً فتوهَّمتُ أنَّ بينا تهيِّبُني " ولا شكَّ أن هذا التوهُّمَ كان بسببِ أنَّ كان التوليُّ بَعْغَتَةً وإِذا كان كذلك كانت مع الأولى كالشيءِ الواحدِ وكان منزلتُها منها منزلةَ المفعولِ والظرفِ وسائرِ ما يجيءُ بعدَ تمام الجملةِ من مَعْمولاتِ الفعلِ مما لا يمكنُ إفرادُهُ على الجملةِ وأن يُعتدَّ كلاماً على حدِّ تهِ .

وهاهنا شيءٌ آخرٌ دقيقٌ . وهو أنَّك إذا نظرتَ إلى قوله : فكانَ مسيرُ عيسِهِم ذمِيلاً وجدته لم يُعْطَفْ هو وحدَه على ما عُطِفَ عليه ولكنَّ تجدُ العطفُ قد تناولَ جملةَ البيتِ مربوطاً آخرُهُ بأوله ألا ترى أنَّ الغرضَ من هذا الكلام أن يجعلَ تولَّوْا بَعْغَتَةً وعلى الوجه الذي توهَّمتُ من أجلِهِ أنَّ البينَ تهيِّبُ به مُستدعيًا بكاءه وموجباً أن ينهَمِلَ دمعُهُ . فلم يَعْنِهِ أن يذكرَ ذَمَّ لَانَ العيسِ إلاَّ ليذكرَ هَمْلَانَ الدمعِ وأن يوفِّقَ بينهما وكذلك الحكمُ في الأوَّلِ فنحنُ وإن قلنا إن العطفَ على " تولَّوْا بَعْغَتَةً " فإننا لا نَعْنِي أن العطفَ عليه وحده مقطوعاً عمَّا بعده بل العطفُ عليه مضموماً إليه ما بعده إلى آخره . وإنَّما أردنا بقولنا : " إنَّ العطفَ عليه " أن نعلمَ أنه الأصلُ والقاعدةُ وأن نصرَ فِك عن أن تطرحه وتجعلَ العطفَ على ما يَلِي هذا